المئة السابعة لوفاة القديس دومينيك

للاب لويس شيخو اليسوعيّ

هذه السنة الحاضرة غنيَّة بتذكار ما وقع في مئاتها السالفة من الامور الخطيرة ولاسيَّما وفيات افرادٍ من كبار الرجال. وقد مرَّ لنا في الاعداد السابقة ذكر البعض منهم وضربنا الصفح عن غيرهم ولا يسعنا السكوت عن واحد منهم خدم الدين والهيئة الاجتماعيَّة بنفسه وبتلامذته من بعده نعني به القديس دومينيك منشئ الرهبانيَّة الدومنيكيَّة الذي احتفل رهبانهُ الاجلَّا ووطنهُ اسبانية بتذكار المئة السابعة لوفاته في ٦ آب المنصرم

مدائح القديس دومينيك

دومنغو دي كزمان ولد سنة ١١٧٠ للميلاد في بلدة كلاروجة من اعمال قشتالية في ابرشيَّة أوسما. وكان ابواه من اشراف تلك البلاد يُدعى والدهُ فليكس ووالدتهُ حنَّة أزرا. وكانت هذه سيِّدةً صالحةً عريقة في البرّ والتقى يُروى عنها اذ كانت حبلى بابنها انها رأت في حلمها كلباً وبفيهِ سراجٌ منير يطوف بهِ في الارض. وكذلك رأوا يوم تنصيرهِ كركباً ساطعاً على جبينهِ فتوسَّموا بذينك الامرين خيراً لمستقبل الصبيّ ودُعي الطفل دومنيك اي عبد الاحد

نشأ الولد في حجر والدتهِ على الصلاح والورع الى ان ترعرع فسلَّمتهُ أمُّهُ الى خالهِ وكان رئيس كهنة من افضل ارباب الدين ليتخرَّج تحت نظارتهِ في الآداب والفضيلة فبلغ فيهما حيث لم تبلغ الآمال والهمم وقرنَ بين العلم والدين حتَّى أُشير اليهِ بالبنان في كليهما

وفي الخامسة عشرة من عمرهِ ارسلهُ ابواهُ الى جامعة مدينة بالنشيه من اعمال مملكة لاون فانكبَّ هناك مدَّة تسع سنين على درس الفلسفة واللاهوت فنبغ فيهما واستفاض صيتهُ فكان الناس يقصدونهُ في فكّ مشاكلهم فيلبّي دعوتهم ويُحسن

معاملتهم ويرشدهم الى ما فيهِ صلاحهم فيعودون شاكرين يلهجون بسموّ فضيلتهِ ويطرئون سعة علمهِ

وفي سنة ١١٩١ أُصيبت بلاد اسبانية بالمجاعة فازدحم الفقراء على ابواب المحسنين فما كان من دومينيك الّا انهُ افرغ جيوبهُ وفرّق ما كان لهُ من الدراهم على المحتاجين ثمّ باع امتعتهُ وكتبهُ ووزّع عليهم اثمانها . وبلغ بهِ حبُّ القريب الى ان عرض على امرأةٍ ان ينتدي ابنها من أَسر المسلمين ويقوم مقامهُ لولا انّ اصحابهُ تصدّوا لهُ ومنعوهُ

٢ الكاهن رجل الله

ذاع صيت دومينيك في وطنهِ فاستدعاهُ اسقف مدينة أُوسما ومع كونهِ في مقتبل الشباب اقامهُ في كنيستهِ في جملة اكليروسها القانوني بصفة ارشدياقون فما لبث ان اصبح قدوةً لكل رصفائهِ بعبادتهِ واستحرارهِ بالصلاة وتجرُّدهِ عن كلّ ملاذّ الحياة بالاصوام المتواترة والتقشفات اليوميّة كلبس المسح والنوم على الحضيض وجلد جسدهِ بالمقارع

فحدا ذلك باسقفهِ الى ان يرسمهُ كاهناً ليفلح كرم الرب وينتطع الى خلاص القريب . فزادتهُ نعمةُ الكهنوت غيرةً فعلّم اولًا اللاهوت وشرح الكتاب المقدّس في بالنشية ببلاغة عظيمة . ثم اخذ يطوف اقاليم مملكة اسبانية كتالونية وقسطيلة وليون يدعو اهلها الى قداسة الحياة فكان حيثما يعظ او يوزّع الاسرار يحيي في القلوب شواعر الايمان ويردّ الخطأة الى التوبة ويهدي الضالّين من اهل البدع الى حجر الكنيسة فكان لكلامهِ في النفوس وقع عظيم

ولمّا كانت السنة ١٢٠٣ طلبهُ اسقف أُسما ليرافقهُ الى فرنسة ليقوم بمهمّةٍ عهدها اليهِ ملك قسطيلة الفنس التاسع لدى ملك فرنسة . فنجاء النجاح موافقاً لرغبتهما على انهما لم يعودا الى اسبانية اذ عاينا انّ جنوب بلاد فرنسة اضحت كشعلة من النار بما اثارهُ الهراطقة الالبيجيُّون من الفتن اذ كانوا يتدفعون اندفاع السيل الجحاف على المدن والقرى ينهبون اموالها ويقتلون سكّانها ويبثّون فيها اضاليل مساني المبتدع اي الثانويّة والاشتراكيّة . ومن ثمّ قصدا المدينة الخالدة رومية العظمى وطلبا من الحبر

الاعظم اينوشنسيوس الثالث ان يرخص لها في مناهضة اولئك المبتدعين وارشادهم امّا هما يمنعان الشرّ من الاستفحال والتفاقم. فرضي البابا بكل طيب قلب بما عرضا عليه وبارك نيّتهما وتمنّى لهما خيرًا

٣ الرسول المغبور

عاد الرسولان الى فرنسة واجتمعا بممثلي الكرسي الرسولي وبرهبان القديس مبارك وزعماء الكاثوليك ليتّفقوا على الوسائل الواجب التوسّل بها لكبح جماح الهراطقة. واذ كان بعضهم يجنحون الى استعمال القوّة والتنكيل رأى دومينيك انّ وسائل الاقناع أفضل واولى. ومن ثمّ اشار الى الحضور ان ينبذوا في معاشهم كلّ ترفٍ وبذخ ويسلكوا مسالك الرسل فيكتسبوا بمثالهم اولئك الخوارج ويردّوهم الى الصراط المستقيم. فاجاب كثيرون الى نصائحه

امّا القديس دومينيك فانّهُ مشى في مقدّمة الجميع ونزل في ذلك الميدان يدعو اليه كالراعي الصالح تلك الخراف الضالّة. وأقام في بهرتهم في مدينة ألبي حيث قويت صولتهم واشتدّت شوكتهم ومنها اشتقّوا اسمهم الالبيجيين. فكان يواصل عملهُ ليلًا مع نهار تارةً بالوعظ والارشاد وحينًا بالمحادثات والمجاملات وطورًا بالعجائب التي كان يجترحها ليثبت صحّة اقوالهِ من شفاء مرضى وخلاص غرقى واحياء موتى وطرد الابالسة. وممّا اقترحهُ على الهراطقة أن تُلقى في النار كُتب الفريقَيْن فاذا ثبت بعضها على اللهيب عرفوا صحّة ايمان كَتَبَتِها فرضي الجمهور واضحت صحائف الالبيجيين بلمحة عين رمادًا بخلاف الكتب الكاثوليكيّة التي أُلقيت ثلاثًا في الموقدة فلم تؤثّر فيها النار. فكانت هذه الاعجوبة مدعاةً لارتداد بعض الهراطقة الى الدين الحق

لكنّ معظمهم بقي مصرًّا على ضلاله فأثّر عنادهم في صدر دومينيك ولم يشأ ان يشتدّ عليهم بالعقاب فالتجأ الى العذراء مريم التي كان واثقًا بحمايتها وطلب اليها بالحاح ان تشير اليهِ بواسطة فعّالة يُلين بها تلك القلوب الصمّاء. فظهرت لهُ ووعدتهُ خيرًا اذا نشر عبادة تأمّلات اسرار حياتها وحياة ابنها الالهي الخمسة عشر من فرح وحزن ومجد في الوردية المقدّسة او المسبحة. فاسرع القديس وعلّمها سامعيهِ فانتشرت بعد قليل في جنوبي فرنسة ولاسيّما في الجهات المربوءة ببدعة الهراطقة فارتدّ بممارستها

الوفٌ منهم . ومن النعم العجيبة المنسوبة الى الورديّة انَّ ملكة فرنسة بلَنْش دي قسطيلية قصدت القديس وطلبت اليه ان يباركها ويصلّي لأجلها كي يمنحها الله وارثاً للمملكة فاشار اليها بصلاة الورديّة فتبعت مشورة القديس ولم تزل تتلوها بحرارة حتّى حبلت بذاك الملك العظيم والقديس الجليل مار لويس التاسع فخر دينه ودولته معاً ومرآة اشرف الفضائل المسيحيّة

ومما يُنسَب الى فضل القديس دومينيك انتصار الجيوش الكاثوليكيّة على عساكر الالبيجيين . فانَّ الخبر الاعظم اينوشنسيوس الثالث اذ رأى الفظائع التي يقترفها الهراطقة في بعض انحاء فرنسة وانَّ شرّهم لا يزال يستفحل رغماً عما يفرغهُ القديس دومينيك من كنانة الجهد لهدايتهم أوعز الى ملك فرنسة بان يحاربهم فامر احد كبار الامراء وهو المدعو سيمون دي منفور ان يفلّ شباتهم فحشد الامير جنوداً من الكاثوليك في عدد الف وثلاثمائة مقاتل فاسرع الهراطقة الى محاربته وكان عددهم ينيف على مائة الف جندي وحاصروهُ في قلعة حريزة كان تحصّن فيها فلم يهلع قلب سيمون دي منفور الباسل وانّما تقرّبوا من الاسرار الالهيّة وخرجوا كالاسود الى ساحة الوغى بينما كان القديس دومينيك يصلّي لاجلهم كموسى يوم محاربة الاسرائيليين لاعدائهم فانتصر الكاثوليك على الالبيجيين انتصاراً باهراً فبدّدوهم شذر مذر ورجعوا سالمين لم يُفتقد منهم سوى سبعة جنود وذلك هو انتصار موره (Muret) في ١٢ ايلول من السنة ١٢١٣

وقد انتهز اعداء الكنيسة هذه الفرصة ليرموا القديس دومينيك بتهمة باطلة زاعمين انهُ كان سبباً لما جرى من الدماء في تلك الحرب وهي امري شكاية بلا سند ومما يشهد لهُ التاريخ انَّهُ كان اذا وقف على فعل ذميم في احد الجنود الكاثوليك كان يرفع الامر الى القائد ويكتّم الفاعل بجرأة فيردعهُ . على انَّ الآثام والمظالم التي كان يقترفها الهراطقة لم تسمح لهُ بالسكوت عنهم فعيّنهُ البابا اينوشنتيوس كمفتّش عن دُعاتهم وناشري ضلالهم لمحاكمتهم وقطع نظامهم ففعل بكل همّة وانصاف

٤ منشئ الرهبانيات

رأى دومينيك انَّ الاعمال العظيمة لا تثبت الّا بجميع القوى والاتحاد وذلك ما

حدا به الى انشاء جمعيات رهبانية تساعده في سائر مشروعاته الرسولية

وكانت اوّل رهبانية فكّر في انشائها رهبانية نساء لتهذيب بنات جنسهنّ وكان ذلك في السنة ١٢٠٦ في مدينة تولوز انتشرت بزمن قليل في عدّة بلاد واتت بأثمار يانعة سواء كان لتقديس الراهبات لنفوسهنّ ام لتربية الفتيات وخصوصاً بنات الأعيان والاشراف

وكان يصحب القديس دومينيك في اعماله الرسولية بعض الرجال من ذوي الصلاح والغيرة يشاطرونه اتعابه ففكّر بعد انتصار الكاثوليك من الالبيجيين ان يضمّ اليه رجالاً تجمعهم روابط الاخاء والدين ليبشروا في انحاء فرنسة واسبانية ويساعدوا الكاثوليك في شؤونهم الدينية. ولم يفرض عليهم اوّلاً رسوماً ولم يكد يفرزهم عن الكهنة العاملين في معاشهم ولبسهم وانما نظمهم في جملة القانونيين. وتمّ ذلك اوّلاً في مدينة تولوز . فما لبث ان رأى ما ينجم بتبشيرهم من الخير فقصد رومية لينال من الحبر الاعظم تثبيت جمعيته كرهبانية قانونية وكان اذ ذاك الجالس على كرسيّ القديس بطرس اينوشنسيوس الثالث وهو لا يرى في انشاء رهبانيات جديدة منفعة للكنيسة . وصادف وصول القديس دومينيك الى عاصمة الكثلكة وفود القديس فرنسيس الاسيزي اليها وهو ايضاً يطلب تثبيت رهبانيته فلم يجدا في اوّل امرهما اذناً صاغية في الحبر الروماني الى ان اراه الله في الحلم كنيسة مار يوحنّا اللاتراني الكبرى متداعية على وشك السقوط لولا انّ فرنسيس ودومنيك سنداها بمنكبيهما وقوّيا دعائمها فعدّ ذلك وحياً من الله واثبت الرهبانيتين في السنة ١٢١٥

واذ اقيم في تلك السنة مجمع مسكونيّ في رومية وهو اللاتراني الرابع حضره دومنيك وسُرّ لضرب البدعة الالبيجيّة فيه بالحرم ثمّ عاد الى فرنسة لتدبير رهبانيته فاتّخذ لها قانون القديس اوغسطينوس كما اوعز اليه الحبر الاعظم . على انّ اختلاف الازمنة وتباين الاحوال اضطرّا القديس الى ان يحوّر ذلك القانون ويزيد عليه بنوداً مختلفة فعاد الى رومية لينال الاجازة عنها

وكان في غضون ذلك توفّي البابا اينوشنسيوس الثالث وخلفه اونوريوس الثالث فأثبت تلك التحويرات ومنح القديس دومينيك كنيسةً مع ملحقاتها في رومية ليقيم فيها ديراً لرهبانه . فما كاد يتمكّنه حتّى تقاطر اليه جمهور الطلبة فانافوا على المئة عدًا

فمنى القديس بتهذيبهم على الآداب الرهبانيَّة وانتشر في ايطالية عَرف فضائلهم فعُرفوا بالاخوة الواعظين لاهتمامهم خصوصاً بالارشاد والتبشير . ثم عيَّن لهم القديس ثوباً ابيض كما اوحتْ بهِ لاحد رهبانهِ العذراء مريم مع شملة سوداء فوقهُ كعلامة لطهارة قلوبهم وتجرُّدهم من الجاه العالمي

وبعد ان رأى دومينيك انَّ رهبانيَّتهُ قويت جذورها ونمت فروعها في ايطالية عاد الى فرنسة واجتهد في تعزيزها وترقيتها في انحاء اوربَّة فلم تخب مساعيهِ . فدعا الاساقفةُ والملوك وارباب الصلاح رهبانَ مسار عند الاحد فتحوا الاديرة في نواحي فرنسة ولاسيَّما في عاصمتها باريس حيث سمَّوهم باسم «جاكوبين» لسكناهم في كنيسة يعقوب الرسول برخصة كليَّة باريس . ثم انتشروا في اسبانية والبرتغال والمانية والمجر وبولونية وروسيَّة ومما كان يساعد على نموهم شهرة منشئهم الجليل وما كان يأتيهِ من المعجزات والكرامات العديدة حيثما ترسخ قدمهُ

وقد اضاف القديس دومينيك الى فضلهِ هذا على الكنيسة فضلاً آخر تمَّ بهِ الجبلُ المثلَّث المتين ألا وهو انشاؤهُ للرهبانيَّة الثالثة المختصَّة باهل العالم . وقد مرَّ لنا في عدد سابق ذكر الرهبانيَّة الثالثة التي انشأها القديس فرنسيس لتقديس حياة المؤمنين الساكنين في العالم وما نجم عنها من الخيرات العميقة ولاسيَّما لانعاش الروح المسيحي بين الشعوب . فما قيل هناك عن الرهبانيَّة الفرنسيسيَّة يصدق تماماً عن الرهبانيَّة الثالثة الدومنيكيَّة التي استحقَّت بغيرتها الاسم الذي دعاها به عسكر المسيح واننا نشير اليها إشارةً اذ لا يسمح لنا ضيق المقام بالاتساع في وصفها

فكل هذه المآثر الجليلة قام بها القديس دومينيك في السنين الاخيرة من حياتهِ . وكان آخر ما انشأهُ ديرًا كبيرًا لراهباتهِ في رومية في كنيسة القديسة سابينا وكان نقل اليها راجعاً لبعض شؤون رهبانيَّتهِ ثم غادر رومية ووصل الى مدينة بولونية فأنذرهُ الله بقرب وفاتهِ فوال جزائهِ في دار الخلود فتهلَّل قلبهُ لهذا النبأ واستعدَّ للقاء ربِّهِ بقبول الاسرار وبعد ان جمع ما لقيهُ هناك من تلامذتهِ واوصاهم وصاتهُ الاخيرة بممارسة كلّ الفضائل الرهبانيَّة وزوَّدهم ببركتهِ الصالحة لفظ روحهُ البارَّة بين يدي خالقهِ في اليوم السادس من شهر آب سنة ١٢٢١ وكان في الثانية والخمسين من عمره .

٥ تمجيد الله لوليه ـ نموسلانه

ما برح دومنيك هذه الفانية حتّى اوحى الله بمجده في جنّة النعيم فظهر بالبهاء والجلال لبعض رهبانه وتضاعفت الآيات السماويّة عند قبره حتّى اضطرّ ارباب الدير الى ابتناء كنيسة متّسعة الارجاء لكثرة من كان يقصدها لاكرام ذخائر وليّ الله . وبلغ خبر تلك الكرامات مسامع الحبر الروماني غريغوريوس التاسع فامر بان يشاد لهُ قبر جديد اجلّ واشرف من السابق فلما فُتح القبر الاوّل حتّى فاحت منهُ روائح طيّبة تعطّرت بها الكنيسة مدّة ايّام وجرت عجائب جديدة بنقل جثمانهُ وكان ذلك سنة ١٢٣٣ وفيها اعلن البابا الوما اليه بقداسة دومينيك وادرج اسمهُ في سجلّ القديسين

امّا رهبانيّتهُ فها قد مرّ عليها سبعمائة سنة وهي لا تزال كدوحة نامية تبهج كنيسة الله بأعمال ابنائها الاجلّاء فلا تكاد تجد نوعاً من الفضل الّا وقد امتازوا بهِ سواء كان في التعليم ام في التبشير او في الوعظ او في الكتابة والتأليف ولو لم يَقُم بينهم غير المعلّم الملاكي القديس توما الاكويني شمس المدارس لكفى لهم بهِ فخراً فما قولك بعدد لا يُحصى من رجالهم العظام بينهم احبار رومانيّون كالقديس بيُوس الخامس وبندكتوس الثالث عشر وقدّيسون كرام كالقديس انطونينوس الفقيه والقديس منصور فرّاريوس بوق الدينونة والقديسة كاترينة السيانيّة والقديسة وَرْدة من ليما ومرسلون غيورون كالقديس هياكنتوس ودي لاس كازاس . ومن يجهل في زماننا الذين اشتهروا في عهدنا في القرن المتصرم كالاب لاكوردار منشئ المحاضرات الدينيّة في كنيسة باريس الكبرى ومجدّد رونق الرهبانيّة الدومنيكيّة وكالابوين موندبراي وجانفيه الواعظين المبرّزين

وقد اصاب شرقنا العزيز نصيبهُ من افضال الرهبانيّة الدومينيكانيّة وذلك منذ عهد الصليبيين برسالات موقتة انتدبهم اليها الاحبار الاعظمون ثمّ برسالاتهم الثابتة لاسيّما الرسالة الموصليّة حيث فتحوا الاديرة واداروا المدارس وانشأوا المطابع وقد اشتهر بينهم رئيسهم الطيب الذكر السيّد غزالس دوثال الذي تعيّن بعد ذلك كقاصد رسوليّ على سوريّة فخدم بلادنا بغيرة لا تعرف الملل . ومن آثارهِ ذاك السّتال الجميل الذي يزين مشارف حريصا اقامهُ بالاتفاق مع غبطة مار الياس الحويّك بطريرك الطائفة المارونيّة الجزيل الشرف

ومن مآثر الرهبانيّة الدومنيكيّة قريباً منّا ايضاً مكتبهم الكتابي الشهير في القدس الشريف الذي تخرّج فيه عدّة من ارباب الدين واشتهر رهبانهُ بما نشروهُ من التآليف العلميّة والاثريّة في مجلّتهم الكتابيّة وفي تآليف اخرى متعدّدة. وقد اناطت الحكومة الفرنسويّة بمدرستهم بعد الحرب الكونيّة كلّ الابحاث الاثريّة في فلسطين فكان لهذا الامتياز احسن موقع في قلوب العارفين بفضلهم

ونحن نضمّ صوتنا الضعيف الى صوت إمام الاحبار الذي نشر بنسبة هذا الذكار المنوي بزاوة اطراً فيها القديس دومينيك واذاع على رؤوس الملأ محاسن بنيهِ الكرام ونطلب من الله ان يزيدهم عدداً وفضلاً

قصّة سليمان بن داود في قصر عاد بن شدّاد

نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي

توطئة

بين مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة كتاب ضخم مكتوب بخطّ جليّ حسن يرتقي الى القرن الثامن عشر وهو مجموع قصص عربيّة قديمة ورد البعض منها في جملة قصص الف ليلة وليلة كقصّة سندباد البحري وحكاية هارون الرشيد وباسم الحدّاد وخبر الملك جليماد . وقد وصف حضرة الاب انطون صالحاني هذا المجموع وصفاً مختصراً في اوّل كتابهِ المشرق «طرائف فكاهات في اربع حكايات» استخرجها منهُ وعني بنشرها لاوّل مرّة سنة ١٨٩٠ ثمّ كرّر طبعها حديثاً في هذا العام

وفي اوّل هذا المجموع قصّةٌ لم تُنشر حتى الآن بالطبع وهي قصّة سليمان الملك ورحلتهِ الجويّة محمولاً على بساطهِ العجيب الى ان بلغ الى قصر عاد بن شدّاد حيث أطلعهُ الجنّ على قبر ذاك الملك العظيم فقرأ ما كُتب عليهِ من الحكم شعراً ونثراً وكلّها تذكّرهُ بزوال الدنيا وبتقوى الله . فهذه الحكاية الشبيهة بقصص الف ليلة وليلة بما يُرى فيها من عجائب اخبار الانس والجنّ والحيوان جديرة بان تُلحق بتلك الفكاهات ولذلك احببنا تدوينها في هذا العدد من مجلّة المشرق ليستفيد من مضامينها الباحثون عن اصل القصص العربيّة

وقد ورد في الجزء الثالث من كتاب الف ليلة وليلة (طلب طبعتنا البيروتيّة ص ٣١٩–